مفهوم اسم (البارئ) لدى المفسِّرين واللغويين: دراسة دلالية للمعنى في ضوء السياق القرآني

د. إسلام أنور نبوي المشتولي
مدرس بقسم اللغة العربية
كلية الألسن – جامعة عين شمس

مفهوم اسم البارئ لدى المفسّرين واللغويين: دراسة دلالية للمعنى في ضوء السياق القرآني.

ملخص البحث:

يهدف هذا الملخص إلى:

تحديد معنى اسم (البارئ) وفق قيمته الموقعية في سياق النص القرآني، وذلك بعد تشعب آراء المفسِّرين واللغويين في تحديد معناه.

ومن أهم ما توصل إليه البحث:

- يعدّ تفسير معنى (البرء) بأنه التسوية والتعديل، هو أقرب المعاني لهذا الجذر اللغوي؛ وذلك بعد مقارنته باسميّ (الخالق) و(المصوِّر) المصاحبين له في القرآن الكريم.

- الحكمة في وقوع اسم (البارئ) بين اسميّ (الخالق) و(المصوِّر) تتلخص في أنّ الخلق أعم من البرء لتعلقه بإيجاد المادة التي يتم تسويتها وتعديلها لذلك تقدم عليه، والتصوير يتعلق بالبرء ويختلف باختلاف تركيب مادته لذا تأخر عنه.

-الحكمة من تذكير موسى عليه السلام لعصاة بني إسرائيل مرغباً ومرهباً لهم باسم البارئ في الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة؛ هي إنّه كان يدرك أنّ البرء هو تمام القدرة على تركيب الخلق مع تسويته وتعديله ومن ثمّ إخراجه في أي صورة شاء، وكأنّه كان يريد أن يحذر قومه من عقوبة المَسخ الذي هو تغيير الصورة إلى صورة أقبح منها، وقد حدث ذلك بالفعل لأصحاب السبت منهم وقد أخبرت الآية الخامسة والستون وما يليها من السورة ذاتها عن ذلك المسخ، وكما وضح أنه لا يقدر على تغيير هذه الصورة سوى بارئها.

الكلمات المفتاحية:

السياق القرآني. - سم الله البارئ. - علاقة البرء بالمسخ.

meaning of the name of Allaah "Al-Baari'" according to the understanding of interprettors and Arabic linguists, a semantical study to the meaning in the light of the Qur'aanic context.

Research summary

Research title: meaning of the name of Allaah "Al-Baari'" according to the understanding of interprettors and Arabic linguists, a semantical study to the meaning in the light of the Qur'aanic context.

Objective of the research:

Defining the meaning of "Al-Baari'" according to its position in the Qur'aanic context, mentioning the different opinions of interpreters and linguists with regard to its meaning.

Findings of the research:

Bar' means proportioning and balancing the creation, this is the most accurate meaning of this linguistic root after comparing it to the names "Al-Khaaliq (the Creator)" and "Al-Musawwir (the Fashioner) which accompany it in the holy Qur'aan.

The wisdom behind mentioning "Al-Baari'" between Al-Khaaliq and Al-Misawwir in the holy Qur'aan is as follows; Creation was mentioned before it because it is more general in mening than bar', because it is related to bringing into being the creation which is then proportioned and balanced while fashionation is mentioned after it because it is related to bar' and differs as to forming the creation.

The reason why Moses, may peace be upon him, reminded the disobedient people from among the Children of Israel of the name "Al-Baari'" -as mentioned in verse number 54 of Soorat Al-Baqarah- is that because he was fully aware that bar' is the complete ability of Allaah to form, proportion and balance the creation and then make it in whatever form He wills. It was as if he was warning his nation against the punishment of metamorphosis, which is transforming a creation into a worse form, which happened in reality to the People of Sabbath among them according to verse 65 and the next verses of the same soorah. It is clear that no one is able to change the form of a creation except the One who proportioned it.

مفهوم اسم البارئ لدى المفسّرين واللغويين: دراسة دلالية للمعنى في ضوء السياق القرآني.

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، الحمد لله الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، الحمد لله الذي أنزل على رسوله كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدا، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأنّه أمات وأحيا، وأنّه خلق الذكر والأنثى، وأشهد أنّ محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى، وأصلي وأسلم عليه وعلى آله وصحبه أولي المناقب والعلا. أمّا بعد:

وهذا البحث يعالج القيمة الموقعية أو المكانية التي يشغلها اسم (البارئ) في القرآن الكريم، ومدى تأثير تلك القيمة في تحديد المعنى المعجمي لذلك الاسم، لا سيما وقد تعددت آراء المفسرين واللغويين في تحديد معنى هذا الاسم الكريم بدرجة وصلت من كثرتها إلى حد الخلط والتناقض.

وسوف يتم توضيح ذلك عن طريق الإفادة من بعض المناهج اللغوية، مثل المنهج الوصفي الذي يعنى بتحليل ما وصل إليه إحصاء هذا الاسم في القرآن وآراء المفسِّرين واللغويين في معناه، والربط بين المواضع التي ورد فيها هذا الاسم في القرآن الكريم باعتباره نصًّا واحدا، وذلك كله في إطار نظرية السياق بشقيها الداخلي والخارجي.

وينقسم هذا البحث إلى مدخل: يتناول نبذة مختصرة عن نظرية السياق مع التركيز على المستوى الدلالي لها، وإحصاء مواضع اسم (البارئ) في القرآن الكريم، وثلاثة مباحث: أولها: يتناول مفهوم اسم الله (البارئ) لدى المفسِّرين واللغويين، وثانيها: يتناول الحكمة من وقوع اسم (البارئ) بين اسمي (الخالق) و(المصوِّر) في السياق القرآني، وثالثها: يتناول الحكمة من تكرار موسى عليه السلام لاسم (البارئ) دون غيره من أسماء الله الحسنى في استتابة قومه بعد عبادتهم للعجل، وخاتمة: تبرز أهم نتائج هذا البحث، وثبت بأهم مصادر هذا البحث ومراجعه.

مدخل:

يعالج هذا البحث المعاني المختلفة لاسم (البارئ) في القرآن الكريم، بغية الوقوف على أقرب المعاني المرادة من بنيته الصرفية وقيمته الموقعية في سياق القرآن، وذلك من خلال المقارنة بين المواضع التي شغلها هذا الاسم؛ لأنّ أفضل ما يفَسَّر به القرآن القرآن ذاته.

وسوف يتم الاستعانة بنظرية السياق بشقيها الداخلي والخارجي مع التركيز على المستوى الدلالي لاستيعابه بقية المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، وفيما يلي توضيح مختصر لتلك النظرية:

المقصود بنظرية السياق؛ هو ما كان يعنيه العرب القدامى من قولهم في الأمثال المنسوب إلى أكثم بن صيفي: (لكل مقام مقال)، حيث تتناول هذه العبارة أهم الأسس السياقية، الداخلية المتمثلة في المقال، والخارجية المتمثلة في المقام، وكان السبق لعلماء العرب المفسرين

والمُحَدِّثين والفقهاء واللغويين والنحويين في إرساء قواعد تلك النظرية قبل علماء الغرب بأكثر من ألف عام.

وقد ظهرت نظرية السياق: Context في الغرب باعتبارها بديلاً للمذهب التركيبي أو البنيوي، وقد بلور علماء اللغة المحدثون أسس تلك النظرية، حتى حصروها في أربعة أسس هي:

- الجملة هي وحدة التحليل الدلالي؛ وهي القرائن اللفظية، التي تهتم بالدراسة اللغوية على مختلف مستوياتها، الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية.

- مراعاة المقام أو السياق الخارجي: وهو يعنى بالغرض العام الذي سيق من أجله الكلام، وفق حال المتكلم والسامع، وكذلك مراعاة البيئة المحيطة بهما، ومراعاة الأحوال النفسية والاجتماعية والثقافية التي سيق فيها النص.

- قيود التوارد: وهو يختص باستقامة الكلام من عدمه، وهو يُعنى بتوافق الوحدة المعجمية مع ما يجاورها.

- مراعاة كل الوظائف التي تنهض بها الوحدات اللغوية.(١)

وقد أشار الدكتور تمّام حسّان رحمه الله إشارة لطيفة للربط بين المعنى الحرفي أو ما يُعرف عند البلاغيين بـ(المقال)والسياق الخارجي للنصّ أو ما كان يُعرف عندهم كذلك باسم (المقام) وهو محور ما يُسمّى بين اللغويين اليوم باسم (الدلالة الوصفية) حيث يقول: " وفكرة "المقام" هذه هي المركز الذي يدور حول علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، وهو الأساس الذي ينبني عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، وهو الوجه الذي تتمثَّل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء "المقال". ومن المعروف أن إجلاء المعنى على المستوى الوظيفي "الصوتي والصرفي والنحوي"، وعلى المستوى المعجمي فوق ذلك لا يعطينا إلّا "معنى المقال" أو (المعنى الحرفي) كما يسميه النقاد، أو معنى (ظاهر النص) كما يسميه الأصوليون".(٢)

وسوف يتجلى دور هذا الكلام في المبحث الثالث لإيضاح الحكمة من تكرار موسى عليه السلام لاسم (البارئ) دون غيره من أسماء الله الحسنى في مقام الترغيب والترهيب لقومه بعد عبادتهم العجل.

وقد ثبت بالإحصاء أنّ اسم (البارئ) قد ذُكِر ثلاث مرات في القرآن، مرتين على لسان موسى -عليه السلام- في موضع واحد، حيث جاء معرَّفاً بالإضافة منفرداً غير مقترن بأي اسم من أسماء الله الأخرى، وذلك أثناء استتابته قومه كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٥٤].

وسمَّى الله به نفسَه العلية في المرة الثالثة، حيث جاء معرفَّاً بـ(ال) مقترناً باسمين جليلين لله -عزّ وجلّ-؛ هما: (الخالِق) و(المصوِّر) وقد وقع بينهما، وذلك كما في قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } [الحشر، من الآية:٢٤].

ويحاول هذا البحث الإجابة على عدة أسئلة أثيرت لدى الباحث عند تَتَبُّعه اسم (البارئ) في القرآن؛ من هذه التساؤلات: ما الحكمة في حثّ موسى -عليه السلام- قومه على التوبة مذكراً إياهم باسم الله (البارئ) دون غيره من أسماء الله الحسنى الأخرى، وما الحكمة من تكراره لهذا الاسم مرتين في هذا الموضع، وكذلك ما الحكمة في وقوع اسم (البارئ) بين اسمي (الخالق، والمصوِّر)، وما الحكمة في تقدم اسم (الخالق) عليه، وتأخر اسم (المصوِّر) عنه؟.

المبحث الأول: مفهوم اسم الله (البارئ) لدى المفسرين واللغويين:

سبقت الإشارة في مدخل هذا البحث إلى أنّ اسم (البارئ) قد ورد في موضعين في القرآن الكريم؛ أحدهما أثنى به الله على ذاته العلية، والآخر على لسان موسى عليه السلام، وقبل توضيح الإجابة على الأسئلة التي طُرحت آنفاً في مدخل البحث، نعرض ابتداءً مفهوم (البرء) لدى المفسرين، وشرّاح أسماء الله الحسنى قبل مفهومه لدى اللغويين لما لأسماء الله من خصوصية في تحديد دلالتها.

أولا: آراء المفسرين في اسم (البارئ):

ورد في كتاب أسماء الله الحسنى المنسوب إلى الزجاج: "البارئ يقال برأ الله الخلق فهو يبرؤهم برءاً إذا فطرهم، والبرء خلق على صفة فكل مبروء مخلوق وليس كل مخلوق مبروءاً وذلك لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء من قولهم برأت من المرض وبرئت من الدين أبرأ منه فبعض الخلق إذا فصل من بعض سمي فاعله بارئا وفي الأيمان لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة.".(٣)

وقال البيهقي عن اسم (البارئ) تحت: (باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الإبداع والاختراع له): "قال الحليميّ -رحمه اللَّه-: وهذا الاسم يحتمل معنيين أحدهما المُوجِد لما كان في معلومهِ من أصناف الخلائق، وهذا هو الَّذي يشير إليه قوله جلَّ وعزَّ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}[الحديد من الآية: ٢٢]، ولا شكَّ أنَّ إثبات الإبداع والاعتراف به للباري جلَّ وعزَّ ليس يكون على أنَّه أبدع بغتةً من غير علم سبق له بما هو مبدعه، لكن على أنَّه كان عالما بما أبدع قبل أن يُبدع، فكما وجب له عند الإبداع اسم البديع وجب له اسم البارئ، والآخر: أنّ المراد بالبارئ: قالب الأعيان، أي أنه أبدع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء ثمّ خلق منها الأجسام المختلفة، فيكون هذا من قولهم: برأ القوّاس القوس إذا صنعها من موادها التي كانت لها فجاءت منها لا كهيئتها، والاعتراف لله عزّ وجلّ بالإبداع يقتضي الاعتراف له بالبرء".(٤)

ويقول الغزالي عن أسماء (الخالق، البارئ، المصور): "قد يُظن أنّ هذه الأسماء مترادفة وأنّ الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولا وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانيا وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا والله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد، ومصوِّر من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب".(٥)

ثم ضرب مثلا بخلق الإنسان وعدّد بعض مراحل خلقه حتى قال: "وكل ذلك يرجع إلى التقدير فهو باعتبار تقدير هذه الأمور خالق، وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير مصور، وباعتبار مجرد الإيجاد والإخراج من العدم إلى الوجود بارئ."(٦)

وذكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى:- {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } [الحشر، من الآية:٢٤]، أنّ: " (الْخَالِقُ) المقدّر لما يوجده، و(البارئ) المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة، و(الْمُصَوّرُ)... يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات."(٧)

ويقول ابن الجوزي عن هذه الأسماء الثلاثة: " وأما الخالق، فقال الخطابي: هو المبتدئ للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق... والبارئ: الخالق، يقال برأ الله الخلق يبرؤهم، والمصور: الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل".(٨)

وكذلك ورد في تفسير الرازي ما يشابه تلك التفسيرات إلا أنه أشار إشارة صريحة إلى سبب تقدم اسم (الخالق) على اسم (البارئ)، وتقدم اسم (البارئ) على اسم (المصوِّر) حيث يقول: "((هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ))والخلق هو التقدير معناه أنه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة، ثم قال : ((الْبَارِئُ)) وهو بمنزلة قولنا: صانع وموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام ، ولذلك يقال في الخلق : برية ولا يقال في الأعراض التي هي كاللون والطعم، وأما ((المصَوِّر)) فمعناه أنه يخلق صور الخلق على ما يريد. وقدم ذكر الخالق على البارئ، لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور ، لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات."(٩)

وقال أبو حيّان: "(الْخَالِقُ): المقدر لما يوجده، (البارئ): المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة، (الْمُصَوّرُ): الممثل، وقرأ عليّ وحاطب بن أبي بلتعة والحسن: المصوَّرَ بفتح الواو والراء، وانتصب مفعولاً بـ(البارئ)، وأراد به جنس المصور، وعن عليّ: فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، نحو:الضارب الغلامِ."(١٠)

وقد أورد الخازن في تفسيره عن أسماء الله (الخالق، البارئ، المصوِّر) قوله: "الخالق: أي المقدر لما يوجده فهو سبحانه وتعالى قدر أفعاله على وجوه مخصوصة فهو راجع إلى الإرادة وقيل المقدر لقلب الشيء بالتدبير إلى غيره، البارئ: أي المخترع المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود، المصور: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده وقيل معناه الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض وقيل: الخالق: المبدئ للخلق المخترع له على غير مثال سبق، البارئ: المنشئ لما يريد بخلقه فيظهره من العدم إلى الوجود، المصور لما خلقه وأنشأه على صور مختلفة وأشكال متباينة، وقيل: معنى التصوير: التخطيط والتشكيل."(١١)

ثمّ ذكر القول ذاته الذي قد ورد في تفسير الرازي عن الحكمة في ترتيب هذه الأسماء الحسنى الثلاثة حيث يقول: "فأولاً يكون خلقا ثم برءا ثم تصويرا. وإنما قدم الخالق على البارئ لأن تأثير الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات".(١٢)

والأقوال في هذا الشأن كثيرة ومتعددة، ودرءً للمَلل سوف يكتفي الباحث بما أورده البقاعي وابن عاشور-رحمهما الله- لأهمية كلامهما في محاولة الوقوف على المعنى القريب لهذه الأسماء الثلاثة عامّة واسم البارئ خاصّة كما سيتضح في البحث لاحقاً.

يقول البقاعي في اسم (الخالق): "فالخالق في الحقيقة هو الذي كل شيء عنده بمقدار".(١٣)

ثمّ يقول في اسمي (البارئ) و(المصوِّر): " (البارئ) أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال، فإن كان من المحيط العلم كان تمام التهيؤ للصورة على كمال المشيئة فيها، وإن كان ممن لا يحيط علماً طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة.... ولما كان من يهيئ الأمور للتصوير قد لا يتقنه قال: (المصور) فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور"(٤)

ثم ذكر المثال الذي وضح به الفرق بين هذه الأسماء قائلاً: " ويتضح الفرق جداً بين الأسماء الثلاثة بالبناء فإنه يحتاج أولاً إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الحجر واللبِن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها ، وهذا يتولاه المهندس فيرسمه وهو الخلق ثم يحتاج إلى حجار ينحت الحجارة ويهيئها لتصلح لمواضعها التي تكون فيها من الأبواب وأوساط الجدر وأطرافها وزواياها وغير ذلك، وكذا الخشاب والحداد في الخشب والحديد وهو البرء ثم يأخذ الكل البناء فيضعها مواضعها إلى أن تقوم صورتها التي رسمها المهندس أولاً وقدرها ، ولا تقوم الصورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحسب الطاقة كما أن البناء يضع الحجارة أولاً ثم يجعل الخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة ، ولو قلب ذلك لم تثبت الصورة ولم يكن لهذا الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره أعظم ، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله".(١٤)

أمّا ابن عاشور فقد أشار إلى بعض الخلاف الذي قد وقع بين المفسرين فيما يتعلق بتلك الأسماء، حيث ذكر أنّ ابن عطية وصاحب القاموس الفيروز أبادي- قد جعلا اسم (البارئ) مرادفا لاسم (الخالق).

ثم ذكر قول الزمخشري في أنّ (البارئ) هو المميز بعضه أي الخلق من بعض بالأشكال المختلفة، ثم ذكر رأي القاضي ابن العربي في أنّ (البارئ) هو خالق الناس من البرَى مقصوراً وهو التراب خاصاً بخلق جنس الإنسان، ثم ذكر رأي الإمام الغزالي في أنّ (البارئ) إنه مخترِع موجود.

وقد رجّح ابن عاشور تأويل الزمخشري على غيره، ثم قال معللاً ترتيب هذه الأسماء على هذا النحو: "وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة لأن من مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان ثم بالتصّور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة".(١٥)

والذي يتتبع ما أورده ابن عاشور يجد أنّ شرح ابن عاشور نفسه لتلك الأسماء وبخاصّة اسم (البارئ) أقرب للوضوح من بقية الآراء التي ذكرها بما فيها رأي الزمخشري.

وإجمالاً فمن خلال ما سبق من تعريفات نجد أنّ شارحي أسماء الله الحسنى، ومفسري كتاب الله يكادون أن يجمعوا على أنّ (الخالق) هو المقدر الموجد، واسم (البارئ) لديهم يدور بين الخالق، والفاطر، والمخترع، والمبدع، والصانع، والمدقق، والمنشئ، والمميز للأشكال، وقالب الأعيان، وفاصل الصور ومفرقها، والموجد من العدم، ومهيئ الأشكال ومكونها...إلخ، واسم (المصوِّر) لم يختلف تعريفه كثيراً، حيث يعني (مميز الصور ومخططها ومشكّلها)، إلّا أنّ تعريفه لم يخلُ من خلط وتداخل مع اسم (البارئ).

وتفصيلاً نجد أنّ تناول هؤلاء المفسّرين لهذه الأسماء الثلاثة يوقع القارئ في حيرة بالغة لما يلامسه من الخلط الذي يصل إلى حدّ التناقض في بعض الأقوال، وقبل توضيح ذلك نشير إلى رأي الغزالي -رحمه الله- في أنّ تلك الأسماء الثلاثة ليست مترادفة وإن كان يعني بالترادف هنا التطابق التام في المعنى فهو محق في ذلك لأنه إن كانت كل زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى، فمن باب أولى أن يختلف المعنى باختلاف المبنى، وعلى هذا فإنّ من يفسر تلك الأسماء كلها خصوصاً (البارئ) بالخلق فقط دون توضيح فإنه لم يصب كبد الحقيقة في وضع القارئ على المعنى الدقيق.

ومما يؤكد ذلك أيضا ما أورده الزجّاج "كل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروء"، وهذا يعنى أنّ الخلق أعم من البرء حيث إنّ البرء نوع من الخلق.

ولكنّ الغزالي -رحمه الله- ذاته بعدما أشار في تفسيره لتلك الأسماء إلى عدم الترادف التّام خلط في التفسير بين اسمي (البارئ، والمصوِّر) حيث بدأ التعريف بقوله: "كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولا وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانيا وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا"، وهذا يشير إلى أنّ البرء عنده يعني الإيجاد على وفق التقدير، حيث إنّ الترتيب بين الأسماء يقتضي ذلك، ثم عاد ليقول: " وكل ذلك يرجع إلى التقدير فهو باعتبار تقدير هذه الأمور خالق، وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير مصور، وباعتبار مجرد الإيجاد والإخراج من العدم إلى الوجود بارئ."، ونلاحظ أنه هنا قد قدّم (المصوِّر) على (البارئ)، وأعطى اسم (المصوِّر) التعريف الذي قد أعطاه لاسم (البارئ) آنفاً وهو -الإيجاد على وفق التقدير-

وكذلك ما أورده ابن الجوزي عن الخطابي فيما يتعلق باسم (الخالق) يتناقض مع ما أورده الخازن من بعده حيث يقول في زاد المسير: "" وأما الخالق، فقال الخطابي: هو المبتدئ للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق" وهذا هو المعنى ذاته الذي جعله الخازن لاسم (البارئ)، حيث يقول: "، البارئ: أي المخترع المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود"

كذلك فالمتدبر في بعض العلل التي ساقها بعض المفسّرين لإبراز الحكمة من ذلك الترتيب بين الأسماء الثلاثة في آية سورة الحشر لا يزال يشعر بالغموض والحَيرة؛ من ذلك مثلا التعليل الذي أورده الرازي ونقله عنه حرفيا الخازن وإن لم يذكر ذلك، وهو: "وإنما قدم الخالق

على البارئ لأن التأثير الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات"،

والذي يتأمل في هذا التعليل يصل إلى أنه إن كان يعني تأثير الإرادة عنده الخلق فبالتالي تأثير القدرة يعني البرء، فالرازي بهذا التعليل يفصل بين الإرادة والقدرة في حين أنّه جمع بينهما في تعريف اسم (الخالق)، ولم يشر إلى لفظة القدرة في تعريفه لاسم (البارئ)، ثم عاد ليتحدث عن الإرادة في تفسيره لاسم (المصوّر)؛ يقول: " وأما ((المصَوِّر)) فمعناه أنه يخلق صور الخلق على ما يريد"

وفي قوله: "إيجاد الذات مُقدَّم على إيجاد الصفات" إشارة رائعة في توضيح معنى التصوير الذي يكتسب اختلاف صفاته من اختلاف البرء قبله، وإن كان يعني بإيجاد الذات تكوين المادة بعد وجودها فهو محق وإن كان يعني وجودها من العدم فقد سبق الرد على ذلك.

ويُلاحظ كذلك من آراء المفسّرين أنّ الخلف منهم يأخذ عن السلف قوله فيورده كما هو مع تصرّف طفيف دون مناقشة ما أخذ؛ من ذلك ما أورده أبو حيّان في تفسير تلك الآية مقتبساً إياه من الزمخشري، وما أورده الخازن بعدهما يدل على ذلك أيضاً.

وقبل الفصل في آراء المفسّرين وترجيح الأقرب منها لتحديد معنى اسم (البارئ) من خلال مقارنته بالاسمين اللذين قد وقع بينهما في النصّ القرآني نعرض مفهوم اللغويين لاسم (البارئ)؛ لأنّ العلم باللغة من آليات التفسير التي لا يجب على أي مفسِّر إغفالها؛ لأنّ اللغة كذلك كثيراً تكون الفيصل في تحديد معنى بعينه أو ترجيح رأي على رأي آخر.

ثانياً: آراء اللغويين في اسم (البارئ):

يقول الخليل: "بَرَأَ: البَرْء، مهموز: الخَلْق. بَرَأَ الله الخلْق يَبرَؤُهُمْ برءً، فهو بارِئ. والبُرْءُ: السَّلامة من السقم، تقول: بَرَأَ يبرأ ويبرُؤ بَرْءً وبروءً. وبَرِىء يَبْرَأُ بمعناه. والبراءة من العَيب والمكروه".(١٦)

وقال الجوهري في الصحاح: "بَرَأَ الله الخلق بَرْءًا، وأيضاً هو البارئ. والبريَّة: الخلق".(١٧)

ويقول ابن فارس: "(بَرَأَ) فَأَمَّا الْبَاءُ وَالرَّاءُ وَالْهَمْزَةُ فَأَصْلَانِ إِلَيْهِمَا تَرْجِعُ فُرُوعُ الْبَابِ: أَحَدُهُمَا الْخَلْقُ، يُقَالُ: بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَبْرَؤُهُمْ بَرْءًا. وَالْبَارِئُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ}، [البقرة، من الآية: ٥٤]... وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ وَمُزَايَلَتُهُ، مِنْ ذَلِكَ الْبُرْءُ وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنَ السُّقْمِ، يُقَالُ: بَرِئْتُ وَبَرَأْتُ... وَمِنْ ذَلِكَ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْعَيْبِ وَالْمَكْرُوه".(١٨)

ويقول ابن سيدة في المحكم: "[ب ر أ] بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَبْرَؤُهُم بَرْءًا وبُرُوءًا خَلَقَهم يكونُ ذلِكَ في الجَواهِرِ والأَعْراضِ وفي التَّنْزِيل {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} الحديد ٢٢ والبارِئُ من أَسْماءِ اللهِ عَزَّ وجَلّ وفي التَّنْزِيلِ {البارئ المصور} الحشر ٢٤ وفيهِ {فتوبوا إلى بارئكم} البقرة".(١٩)

ويقول ابن منظور في اللسان: "قال: (البارئُ) هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ لا عن مِثالٍ، قالَ ولهذِهِ اللفْظَةِ مِن الاخْتِصاصِ بخِلْقِ الحيَوانِ ما ليس لها بغَيرِهِ مِن المخْلوقات وقلَّما تُسْتَعْمَل في غير الحيوان فيُقال برَأَ اللّه النَّسَمَة وخلَق السموات والأرض"(٢٠)، ثمّ قال: "بَرِئَ إذا تخَلَّصَ وبَرِئَ إذا تَنَزَّهَ وتباعَدَ وبَرِئَ إذا أَعْذَرَ وأَنذَرَ.".(٢١)

ومما يُلاحَظ من كلام اللغويين عن مادة بَرَأَ أنها عندهم تدل على أصلين هما: الخلق والسلامة من العيوب والأمراض كما صرّح بذلك ابن فارس، ومن يتأمل أقوال اللغويين قبله يجد أنّ هذا القول لم يكن اختراعاً من ابن فارس فقد سبقه الخليل إليه في العين وإن لم يصرح به.

ويُلاحظ كذلك أنّ البعض قد خصّ البرء بخلق الحيوان -كما في اللسان-، وخصه البعض الآخر بخلق الإنسان -كما أشار إلى ذلك ابن عاشور عن ابن العربي-، بينما جعله بعض العلماء الآخرين مطلقا.

وقد وقع تعارض بين أصحاب التفسير وأهل اللغة في توجيه اسم (البارئ) أيضاً؛ من ذلك مثلاً أنّ الرازي كما سبق جعل البرء بمعنى الخلق إلا أنه خصه بالخلق دون الأعراض حيث يقول: " يقال في الخلق: برية ولا يقال في الأعراض التي هي كاللون والطعم "، بينما جعله ابن سيدة لهما جميعاً حيث يقول: " بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَبْرَؤُهُم بَرْءًا وبُرُوءًا خَلَقَهم يكونُ ذلِكَ في الجَواهِرِ والأَعْراضِ وفي التَّنْزِيل {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} الحديد ٢٢".

وسوف يناقش البحث هذه الآراء لاحقاً لتوضيح أيها أقرب إلى الصواب.

ولكي يجيب البحث عمّا مضى من تساؤلات بالإضافة إلى الوقوف على أقرب المعاني لاسم (البارئ)، سوف يحاول الباحث في الصفحات القادمة أن يتتبع مواقع هذه الأسماء الثلاثة (الخالق، والبارئ، والمصوِّر) ومشتقاتها في القرآن الكريم؛ لما في تفسير القرآن بالقرآن من أهمية في تحديد المعنى القريب في إطار كتاب الله باعتباره نصّاً واحداً.

المبحث الثاني: الحكمة من وقوع اسم (البارئ) بين اسمي (الخالق) و(المصوِّر) في السياق القرآني:

بالبحث عن اجتماع هذه الأسماء أو مشتقاتها في موضع واحد وُجِدَ أنه قد جُمع بين الخَلق والتصوير صراحة في أكثر من موضع من ذلك مثلاً قوله تعالى:- {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} [الأعراف، من الآية: ١١]، وكلمة (ثمّ) في الآية تدل على تقدم الخَلق على التصوير، وتدل كذلك على التراخي بينهما.

وبالنظر في موضع آخر يجمع بين الخَلق والتصوير في قوله تعالى:- { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار:٦-٨]، وجدنا أنه قد عُطف بالفاء بين الخَلق وقوله:- {سواك فعدَلك}، ثمّ جاء بعدها قوله {في أي صورة ما شاء ركبك}، وهذا يدل على أنّ التسوية والتعديل مرتبة تلي الخلق لذا عُطف بينهما بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب، ويقع التصوير بعد التسوية والتعديل على نحو ما نصّت عليه هذه الآيات.

وعلى هذا يمكن تفسير البرء بالتسوية والتعديل، وذلك قياساً على الترتيب الذي قد ورد في أسماء الله (الخالِق البارِئ المصوِّر) في سورة الحشر.

وقد جُمع بين الخَلق والتسوية في مواضع أخرى وقد عُطف بينهما بالفاء كذلك، من ذلك قوله تعالى:- { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى: ١،٢].

ولم تُشِر المعاجم اللغوية أو الكتب التي تناولت شرح أسماء الله الحسنى في حدود ما ذُكِر في هذا البحث إلى أنّ البرء يعني التسوية والتعديل، رغم أنّ معاجم اللغة كالصحاح واللسان فسّرت معنى التسوية والتعديل بالخَلق والتقويم والتناسب بين الأعضاء.(٢٢)

ومن هنا يستطيع البحث الجواب عن الحكمة في وقوع اسم (البارئ) بين اسمي (الخالق، والمصوِّر):

فعلى اعتبار أنّ البرء يعني التسوية والتعديل والتركيب كما أشارت آيات سورة الانفطار، أو التكوين كما أشار ابن عاشور -رحمه الله- فهذا يحيلنا إلى تكوين الأعضاء داخل كل جسم عن طريق تراص الخلايا وتراكبها بطريقة تحدد صورة ونوع هذا العضو وتميزه عن غيره من الأعضاء في الجسم الواحد، وينسحب هذا بالضرورة على تركيب الخلية ذاتها حيث يتميز نوع كل خلية بتمايز ما رُكِّب منه، وبتركيب الأعضاء والخلايا تختلف صورة كل جسم عن الآخر، ولكن لكي يحدث ذلك لابد من وجود المادة التي يتم تسويتها وتعديلها وتركيبها، فإيجاد الشيء ابتداءً هذا هو الخلق، وتسوية تلك الأشياء وتعديلها ثم تركيبها حتى تأخذ شكلا محدداً ومرجواً فهذا هو البرء، والشكل الذي يحدد هذا الشيء ويميزه عن غيره فهذا هو التصوير، ولتقريب ذلك نضرب مثلا بالـ(قلب) بكونه عضواً في الجسم فتركيبه يختلف عن تركيب ال(كبد) بوصفه عضواً آخر، والذي أعطاهما هذا التباين هو التركيب المختلف لهما من حيث نوع الخلية ومن ثم اختلاف النسيج، واختلاف تركيب ذلك النسيج بحيث يتناسب مع الوظيفة التي خُلق من أجلها ذلك العضو بحيث يصبح له شكل مميز عن غيره ووظيفة محددة لا يؤديها سواه، والتدبر في الجسم وحده تفنى فيه الأعمار وتتعاقب خبرات الأجيال ولن تستطيع الإحاطة بكل ما أودعه البارئ -عز وجل- فيه من إعجاز، فسبحان من كان هذا كلامه.

كذلك كثرة ورود كلمة الخلق بمشتقاتها في القرآن والتي تزيد عن مائتين وأربعين مرة؛ تدل على عموميتها، وكذلك فإنّ كلمة الخلق قد جاءت في القرآن معبرة عن مراحل تكوين خلق الإنسان وهذا يؤكد أيضا أنّ الخلق أعمّ من البرء، وهذا يتوافق مع ما نُسِب إلى الزجاج أنّ "كل مبروء مخلوق وليس كل مخلوق مبروء".

وعلى هذا فتفسير البرء بأنه الإيجاد أو النشأة من العدم غير صحيح كما أشار البعض؛ لأنّ الإيجاد من العدم يتعلق بالخلق، لذلك جاء اسم (الخالق) أولاً، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}، [مريم: ٦٧]،، وكذلك المواضع التي جاءت في القرآن وقد اقترن فيها الخلق بالتسوية تقدم الخلق على التسوية وذلك على اعتبار أنّ التسوية تعني البرء.

ومما يعضد هذا الترتيب بين هذه الأسماء الحسنى الثلاثة؛ قراءة علي -رضي الله عنه- بنصب وجرّ (المصوَّر) بصيغة اسم المفعول، وعليه تكون اسم جنس لما تمّ تصويره وليست اسماً لله -عزّ وجلّ- والرتبة الإعرابية بين الاسمين وفق هذه القراءة تدلّ على أن اسم (البارئ) يكون عاملاً في اسم (المصوَّر) وقد تأخر عنه لاعتماده عليه.

وفيما يتعلق بالتعارض الذي قد وقع بين ما أورده ابن سيدة من حيث تعلق البرء بالجواهر والأعراض معاً، وما أورده الرازي من اختصاص البرء بالخلق دون الأعراض كما أشار هو نحو اللون والطعم، قبل الخوض في هذا التعارض نوضح معنى الجواهر والأعراض اللذين يبدوان أنهما من مصطلحات أهل الكلام، وقد أسهب ابن حزم في توضيح الفرق بينهما في الفِصَل، واختلاف الآراء فيهما، فالجواهر عندهم هي الأجسام، والأعراض هي ما يُدرك بالحواس كاللون والطعم -كما أشار الرازي- وحواس أخرى كالشم والسمع والإدراك بين الحسن والقبح وغير ذلك، وهي عندهم كذلك الأفعال كالأكل والشرب والنوم والجماع والضرب وغير ذلك، وهذا هو مذهب الجمهور، وقد ذكر أنّ البعض يجعلهما واحداً بحيث إنه يجعل الأشياء كلها جواهر دون أعراض، وآخرين يردّون بعض ما اتُفق عليه على أنه من الأعراض إلى الجواهر.(٢٣)

وعليه فإن كانت الجواهر عندهم هي الأجسام فكلاهما متفق على أنّ خلقها من قبيل البرء، وإن كانت الأعراض عندهم هي ما يُدرك بالحواس أو هي الأفعال، فالرازي لا يعد هذا من قبيل البرء، وابن سيده يعدّه منه، وقول الرازي أصح وأقرب إلى المعنى اللغوي والسياقي للبرء؛ لأنّ اللون والطعم وغيرهما من صفات الأشياء تعد من تمام الشكل والصورة وهذا مختص بالتصوير وعلاقته بالبرء علاقة تبعية، فكلما تغير التعديل والتسوية أثناء التكوين ترتب عليه اختلاف اللون والطعم، ونمو الثمار فيه دليل على ذلك؛ فالتمر مثلاً في طور بدء النضوج يكون أخضر اللون، ثم بتقدم النضج يصير أصفر اللون أو أحمره حسب نوع النخيل، ثم يتغير لونه ومذاقه ورائحته في نهاية تمام النضج إذا صار رطباً، وهذه الألوان وتلك المذاقات صور انعكاسية لتغير تركيب الثمرة بتسويتها وتعديلها من طور إلى طور وهو ما يمكن أن نطلق عليه البرء.

وتفسير الأعراض بأنها الأفعال نحو الأكل والنوم وغيرهما فهو أولى بالبعد عن البرء من الألوان والأطعمة، والآية التي استدل بها ابن سيده على أن البرء يشمل الأعراض وهي قوله تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها}، [الحديد، من الآية: ٢٢]، فإنه يبدو من سياق كلامه أنه يرد الضمير في {نبرأها} على المصيبة وهي من الأعراض؛ لأنها من الأشكال والأفعال التي تلحق الأجساد، وقد استحسن ابن كثير غير هذا التأويل في تفسيره حيث يقول: "{إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَة، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} عَائِدٌ عَلَى النُّفُوسِ. وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ. وَالْأَحْسَنُ عَوْدُهُ عَلَى الْخَلِيقَةِ وَالْبَرِيَّةِ؛ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا".(٢٤)

والشاهد من كلام ابن كثير والذي يتفق معه الباحث أنّ الضمير في {نبرأها} لم يعد على المصيبة، وهذا بيّن في استخدامه صيغة التضعيف (قيل)، ولكن ترجيحه لتفسير (الخليقة)

على (النفوس) فيه نظر؛ لأنّ البرء الذي هو بمعنى التسوية كما أثبت البحث قد جاء في معظم مواضعه في القرآن متعلقاً بخلق الأنفس كما سيأتي، ومن الناحية النحوية فالأصل أن يعود الضمير على أقرب اسم له، وأقرب اسم له من الناحية الموقعية كلمة {أنفسكم}، والأنفس من الخلائق والبرية التي أشار إليها ابن كثير، ولا أدري لماذا فصل بينهما.

والمواضع التسعة للتسوية التي جاءت في القرآن(٢٥) كانت متعلقة بالنفس البشرية، عدا موضع سورة الأعلى فجاءت فيه التسوية مطلقة، وهذا يردُّ على ما أورده ابن منظور من أنّ البرء يتعلق أكثر ما يتعلق بخلق الحيوان، ويردّ كذلك على ما ذهب إليه ابن العربي كما نقل عنه ابن عاشور من أنّ البرء خاص بخلق الإنسان فقط، وتفصيل هذا الأمر سوف يأتي في المبحث التالي في سياق قصة موسى عليه السلام.

وبهذا تكون قد تمت الإجابة على السؤال الأول؛ وهو ما الحكمة من الترتيب بين الأسماء الثلاثة التي قد وردت في سورة الحشر: {الخالقُ البارئُ المصوِّرُ}؟

والتي تتلخص في أنّ الخلق أعم من البرء لتعلقه بإيجاد المادة التي يتم تسويتها وتعديلها لذلك تقدم عليه، والتصوير يتعلق بالبرء ويختلف باختلاف تركيب مادته لذا تأخر عنه.

وتعد الإجابة على هذا السؤال الأول منطلقاً إلى الإجابة على السؤال الثاني في سبب تكرار موسى عليه السلام اسم (البارئ) دون غيره في استتابة قومه من أهل الكتاب من يهود بني إسرائيل، ومن اللطائف في هذا الشأن أن سورة الحشر هذه التي قد اختتمت بهذه الآيات التي جاءت فيها أسماء الله مرتبة على هذا النحو: (الخالق البارئ المصَوِّر)، تُستفتح بالكلام أيضاً عن يهود أهل الكتاب من بني إسرائيل حيث يقول الله تعالى في صدر هذه السورة:{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ}، [الحشر: ١-٣].

المبحث الثالث: الحكمة في تكرار نبي الله موسى اسم (البارئ) دون غيره في استتابة قومه:

انطلاقاً مما توصل إليه البحث من أنّ البرء هو التسوية والتعديل مع التركيب ندرك الحكمة التي دعت موسى –عليه السلام- في دعوة قومه إلى التوبة من ذلك الذنب العظيم وهو عبادة العجل، باسم (البارئ) مكرراً دون أن يختار اسماً آخر من أسماء الله الحسنى، وذلك كما في قوله تعالى:- {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ٥٤].

وباعتبار المقام السياقي الذي جاءت فيه هذه الآية، فقد جاءت في سورة البقرة التي قد تحدثت عن جانب كبير من قصة موسى -عليه السلام- مع بني إسرائيل الذين كانوا أهل عصيان وعناد وكفران للنعمة بعد أن أنجاهم الله من طغيان فرعون، فعبدوا العجل بدلا من توحيد الله الذي خلصهم من ذلك البلاء العظيم.

وقد فطن موسى -عليه السلام- إلى تلك الطباع فيهم فأراد أن يذكرهم بما يردعهم عن غيّهم هذا فذكّرهم باسم (البارئ) لأنّه كان يخشى عليهم من غضب الله في الدنيا والآخرة، وبالفعل لمّا تكررت معصيتهم توعدهم الله بقوله: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}، [البقرة، من الآية: ٩٠].

وباستصحاب مقام الاستتابة هذا وما يستلزمه من ترغيب وترهيب نستطيع أن ندرك الأمر الأول الذي دعا موسى -عليه السلام- إلى دعوة قومه مذكراً إياهم باسم (البارئ): هو خشيته عليهم عقوبة المسخ في الدنيا والتي تحدثت عنها السورة بعد تلك الآية بإحدى عشرة آية فقط حيث يقول تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٥، ٦٦].

وربما يقول قائل وما علاقة المسخ باسم الله (البارئ)؟. وهو محق وسوف يتم توضيح ذلك بعد تفسير المسخ لغة وذكر جانب من أقوال المفسرين عن حالات المسخ التي تحدث عنها القرآن الكريم.

المسخ هو: "تحويل صورة إلى صورة أقبح منها".(٢٦)، وقد حدث هذا بالفعل في أهل القرية من بني إسرائيل الذين قد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت فعصوا فمسخهم الله -عز وجل- قردة.

والمسخ ثابت بنصه في كتاب الله -عز وجل- حيث يقول سبحانه: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ}، [يس: ٦٧]، ومن أقوال المفسرين في تلك الآية: "قال السدي: يعني: لَغَيَّرْنَا خَلْقَهم، وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة، وقال الحسن البصري، وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم".(٢٧)

ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية "فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء".(٢٨)

وقد أورد ابن كثير عدة أقوال في تفسير هذه الآيات وقد رجّح أنّ مسخ أصحاب السبت من بني إسرائيل كان معنويا وصُوَرِياً معاً، وهو يرد بذلك على من كان يرى أنّ مسخهم كان معنوياً فقط.

ثم عدّد بعض المواضع الأخرى التي تحدثت عن المسخ في القرآن وذلك كما في قوله تعالى:- {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف:١٦٦].

والمسخ لأشخاص بأعينهم ثابت أيضا في القرآن الكريم، حيث ورد ذلك في أقوام من بني إسرائيل قد مُسخوا قردة وخنازير، وذلك في ثلاثة مواضع من كتاب الله -عز وجل-، أولها عن أصحاب السبت الذين قد مسخهم الله قردة كما حكت عنهم سورة البقرة في الآية الخامسة والستين وما يليها، وقد سبق الكلام عنها، والثاني تتمة قصة أصحاب السبت الذين قد مسخهم الله سبحانه قردة وذلك كما في سورة الأعراف من الآية الثالثة والستين بعد المائة إلى الآية السادسة والستين بعد المائة، حيث يقول الله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

ونذكر في تفسير ذلك شيئاً يسيراً مما أورده الطبري -رحمه الله- حيث يقول: "يقول تعالى ذكره: فلما تمرَّدوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرَّم الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه {قلنا لهم كونوا قردة خاسئين}، أي: بُعَداء من الخير، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: {فلما عتوا عما نهوا عنه}، يقول: لما مَرَد القوم على المعصية {قلنا لهم كونوا قردة خاسئين}، [الأعراف من الآية: ١٦٤]، فصارُوا قردةً لها أذناب، تعاوى، بعدما كانوا رجالا ونساءً".(٢٩)

أمّا الموضع الثالث الذي قد ورد فيه مسخ بعض بني إسرائيل قردة وخنازير في القرآن الكريم فهو ما ورد ذكره في الآية الستين من سورة المائدة حيث يقول الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}، [المائدة:٦٠].

وعن تفصيل القول في مسخ بعض بني إسرائيل خنازير يقول الطبري -رحمه الله-: "وأما سبب مسخ الله من مَسخ منهم خنازير، فإنه كان فيما حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق، عن عُمرَ بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري، قال: حدِّثت أن المسخ في بني إسرائيل من الخنازير، كان أن امرأة من بني إسرائيل كانت في قرية من قرى بني إسرائيل، وكان فيها مَلِك بني إسرائيل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة، إلا أنّ تلك المرأة كانت على بقية من الإسلام متمسكة به، فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناس فتابعوها على أمرها قالت لهم: إنه لا بد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله، وأن تنادوا قومكم بذلك، فاخرجوا فإني خارجة. فخرجت، وخرج إليها ذلك الملك في الناس، فقتل أصحابها جميعًا، وانفلتت من بينهم. قال: ودعت إلى الله حتى تجمَّع الناس إليها، حتى إذا رضيت منهم، أمرتهم بالخروج، فخرجوا وخرجت معهم، وأصيبوا جميعًا وانفلتت من بينهم. ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابوا لها، أمرتهم بالخروج، فخرجوا وخرجت، فأصيبوا جميعًا، وانفلتت من بينهم، فرجعت وقد أيست، وهي تقول: سبحان الله، لو كان لهذا الدين وليٌّ وناصرٌ، لقد أظهره بَعْدُ! قال: فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازيرَ، قد مسخهم الله في ليلتهم تلك، فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت: اليوم أعلم أن الله قد أعزَّ دينه وأمر دينه! قال: فما كان مسخ الخنازير في بني إسرائيل إلا على يديْ تلك المرأة"ز(٣٠)

والمسخ كذلك ثابت في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- من ذلك مثلا ما ورد في صحيح مسلم عن أم حبيبة رضي الله عنها "قال رجل: ((يا رسول الله القردة والخنازير هي مما

مسخ)) فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك".(٣١)

ونتفرع قائلين: إن هذه الآيات وتلك الأحاديث التي تثبت المسخ باعتباره تغيير صورة إلى صورة أقبح منها خير ردّ على دعاة النظرية الدارونية القائلين بأن أصل الإنسان كان قرداً ثمّ بتطوره وارتقائه أضحى إنساناً، وقد انبرى كثير من علماء المسلمين من الرد عليهم ودحض هذه النظرية الواهية التي يغني فسادها عن إفسادها.(٣٢)

وللإجابة عن علاقة المسخ بالبرء فلننظر في مسخ أصحاب السبت من بني إسرائيل نجد أنّ الخلق موجود وهم الذين مُسخوا، والصورة موجودة وهي صورة القِرَدة، لكنّ الصورة صورة مُعدَّلة ولا يتم تعديل الصورة إلا إذا تم تغيير التسوية والتركيب حتى تظهر الصورة وفقاً له، ولا يكون قادراً على تعديل تلك الصورة إلا بارئها، وقد أورد ابن كثير في تفسير سورة الانفطار قولا لعكرمة يعضد هذا الرأي حيث يقول: "قد قال عكرمة في قوله:- {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير".(٣٣)

لذا قال موسى -عليه السلام- لقومه {توبوا إلى بارِئكم}، في المرة الأولى خوفاً عليهم من عقوبة الدنيا التي من أشكالها المسخ.

والأمر الثاني الذي دعا موسى -عليه السلام- إلى تكرار اسم (البارئ) سبحانه في أثناء دعوة قومه إلى التوبة حيث قال {ذلكم خير لكم عند بارئكم}؛ هو تذكيرهم بأنّ الله الذي برأكم ثمّ عبدتم العجل من دونه قادر على إعادة كل واحد منكم على هيئته التي كان عليها بعد فنائها، ومن ثم فالتوبة خير لكم لأنه لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه.

يؤخذ هذا مما ورد في القرآن الكريم في آية من الآيات التي ذُكر فيها لفظة التسوية رَدّاً على من أنكر البعث وذلك كما في قوله تعالى:- { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة:٣،٤]، حيث أخبر الله -عز وجل- عن نفسه بأبلغ أساليب التعظيم المتمثلة في جمع العظمة في قوله {قادرين}، ونون العظمة في قوله {نُسَوِّيَ}، والبنان حتى يظهر على صورته المعجزة التي هو عليها بحيث لا يتماثل بنان شخص مع شخص آخر، لا بدّ أن يسبق هذا تسوية الخلايا أو تعديلها أو تركيبها بما يعطيها صورتها التي يريدها بارئها أن تكون عليها، وهذا على اعتبار أنّ التسوية هي البرء كما سبق توضيح ذلك.

وقد ذكر ابن كثير في قوله تعالى:- {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}: " قال سعيد بن جُبَير والعَوفي، عن ابن عباس: أن نجعله خُفّا أو حافرًا،وكذا قال مسجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك،وابن جرير، ووجَّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا".(٣٤)

وهذا التفسير لا يستقيم وسياق الآيات لأنّ الآية السابقة على تلك الآية قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ}، ويقول ابن كثير نفسه عن تفسيرها: " أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة".(٣٥)

إذن فالقول بالتسوية على أنّها مستوية كالخف أو الحافر قول مرجوح والأفضل منه والذي يتناسب وسياق الآيات هو أنّ تسوية البنان إعادة تعديله وتركيبه أي برءه، يؤكد ذلك قوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء، من الآية: ١٠٤].

وفي رأي ابن جرير في توجيه ذلك الأمر أي تسوية البنان بجعله كالخف أو الحافر في الدنيا؛ إشارة لطيفة إلى أنّ ذلك من قبيل المسخ الذي يكون عن إعادة تسوية ما يتراكب منه بنان الإنسان حتى تتغير صورته فيصبح كخف الحيوان أو حافره.

إلّا أنّ هذا يحسن في غير ذلك الموضع لأن السياق يتحدث عن ذلك في يوم القيامة، ومن ثم فمن الأقرب هو تفسير التسوية بإعادة الخلق بعد فنائه وتحويله ترابا إلى درجة تصل من تمام القدرة الإلهية إلى إعادة ليس كل إنسان فقط على صورته التي كان عليها، بل إعادة ما هو أدق من ذلك وهو البنان الذي فيه البصمة التي تميز كل إنسان عن الآخر وإن تشابهت صورهم.

وبالنظر إلى التفسير اللغوي الذي قد أورده ابن منظور في المبحث الأول: " بَرِئَ إذا تخَلَّصَ وبَرِئَ إذا تَنَزَّهَ وتباعَدَ وبَرِئَ إذا أَعْذَرَ وأَنذَرَ" فيمكن أن يكون موسى -عليه السلام- قاصداً تنزيه الله سبحانه عن الشرك الذي وقع فيه عصاة بني إسرائيل، مع ما في اسم (البارئ) من الإعذار والإنذار المتعلقين بتمام القدرة على هلكة هؤلاء العصاة بأي عقوبة شاء كالمسخ أو الموت، والله أعلم.

وقد دللنا على ذلك من خلال المقام الذي وردت فيه هذه الآية، وبالنظر إلى السياق الداخلي المتمثل في جملة {فتوبوا إلى بارئكم} نجد أنّ القيمة الموقعية لاسم (البارئ) تفيد مع رابطها الأداة (إلى) تعلق غاية التوبة به، وكذلك جملة {ذلكم خير لكم عند بارئكم}، وكأنّ موسى عليه السلام يريد أنّ يؤكد لهم أنه لا ملجأ من الله بارئكم إلا إليه، والطريق إليه لا يكون إلا بالتوبة عن معصيتكم، ووزن اسم الفاعل بما يدلّ عليه من الثبات والاستمرارية يؤكد على المعنى ذاته وهو أن من سواكم وعدلّ صوركم على تلك الهيئة ما زال وسيظل قادراً على مسخها إن شاء، وإضافة الضمير (كُم) العائد على قوم موسى عليه السلام فبإضافته إلى اسم البارئ فيه تأكيد منه أيضاً على أنكم ملك لله وأنتم عبيد له ومن ثَمّ فلا معبود لكم بحق غيره، وله سبحانه أن يتصرف في عبيده كيف يشاء، ومن تمام تأكيد هذا المعنى فإنّ المخارج الصوتية التي تتمثل في جذر مادة (بَرَأَ) توحي بتمام التحكم ظاهراً وباطناً؛ فصوت الباء شفوي آخر جهاز النطق، وصوت الراء اللساني أوسطه، والهمزة الحلقية أوله، وكذلك صفات تلك الأصوات وما تتمتع به من شدة تدل على قوة الإحكام في الخلق، والتكرار الذي يحدثه صوت الراء في دلالة على بدء الخلق وإعادته، والله أعلم.

وهناك لطيفة تجمع بين جل الآيات التي قد جاء بها موسى –عليه السلام- وتحدث عنها القرآن الكريم واسم (البارئ)؛ وذلك باعتبار أنّ البرء هو التسوية والتعديل في التركيب والذي بتباينه تتباين صور أصحابه.

ومن يتتبع الآيات التي قد جاء بها موسى -عليه السلام- إلى بني إسرائيل يجد أنّ الآية فيها تختلف صورتها باختلاف الموقف الذي تحدث فيه، من ذلك مثلاً:

أ/ تغير الصورة من صورة حية إلى صورة حية أخرى الأولى حسنة والثانية قبيحة؛ كما هو الحال في المسخ الذي وقع لأصحاب السبت من بني إسرائيل ، وغير ذلك من المسوخ؛ فالمخلوق واحد، وهم أصحاب السبت من بني إسرائيل، والصور مختلفة؛ فقبل المسخ كانوا على صورة الآدميين، وبعده أضحوا على صورة الحيوانات، ولا يقدر على تغيير تلك الصورة إلا مكونها ومعدلها ومركبها أول مرة.

ولا يقتصر البرء على تحويل الصورة من حسنة إلى قبيحة فقط كما هو الحال في المسخ؛ بل ربما يكون في تحويل صورة حسنة إلى أخرى أحسن منها، وذلك كما في آية اليد التي جاء بها موسى –عليه السلام- إلى فرعون وقومه، وذلك كما في قوله تعالى: { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ}، [الأعراف: ١٠٨]، يقول الطبري في تفسيرها: " وكان موسى، فيما ذكر لنا، آدمَ، فجعل الله تحوُّل يده بيضاء من غير برص، له آية، وعلى صدق قوله: "إني رسول من رب العالمين"، حجة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل".(٣٦)

ب/ تغير الصورة من صورة جامدة صماء إلى صورة حية تعجّ بالحركة؛ وذلك كما في آية العصا، وقد ورد ذكرها في أكثر من موضع من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}، [طه: ١٧-٢٠]، وقوله تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ}، [الأعراف: ١٠٧]، وقوله تعالى: { وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، [النمل: ١٠]، وقوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}، [الأعراف: ١١٧-١٢٠].

يقول السيوطي "عن القاسم بن أبي بزة قال: سحرة فرعون كانوا سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل موسى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوحى الله إليه: يا موسى ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان فاغر فاه فابتلع حبالهم وعصيهم فألقى السحرة عند ذلك سجداً".(٣٧)

والذي يدل على عظيم هذه الآية وأنها لا يقدر عليها إلا بارئها؛ سجود السحرة وإيمانهم بموسى-عليه السلام- لأنهم أدركوا أنه لا يستطيع تغيير صورة هذه العصا الصماء من صورتها الجامدة إلى تلك الصورة الحية إلا مسويها ومعدلها ومركبها سبحانه.

ج/ تغيير الصورة من حية إلى جامدة: وذلك كما في آية العصا أيضاً من حيث عودتها إلى بدء صورتها التي كانت عليها بعد أن أحالها الله تعالى حية تسعى، وذلك كما في قوله تعالى: { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}، [طه:١٧-٢١].

د/ تغيير الصورة من جامدة إلى أخرى جامدة تختلف عنها في خواصها؛ وذلك كما في آية تحول الحجر الصُلب إلى ماء سائل، يقول الله تعالى: { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}، [البقرة، من الآية: ٦٠]، وقوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}، [الأعراف، من الآية: ١٦٠].

يقول السيوطي: "أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله {فانبجست} قال: فانفجرت، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل {فانبجست منه اثنتا عشرة عينا} قال: أجرى الله من الصخرة اثنتي عشرة عينا".(٣٨)

وكذلك كما في آية انفلاق البحر حيث تحول الماء بصورته السائلة الهائجة إلى جبل صُلب راسخ ثمّ عودته مرة أخرى، وذلك كما في قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}، [الشعراء: ٦٣]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى، [طه: ٧٧-٧٩]، والطود: "الجبل العظيم، المتطاول في السماء".(٣٩)

وكذلك آية الدم؛ حيث يتحول الماء إلى دم صريح بكامل خصائصه مع أشخاص بأعينهم عقاباً لهم، وعودته ماءً مرة أخرى مع آخرين في الوقت عينه، وذلك كما في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ}، [الأعراف: ١٣٣]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية التي قد كان العقاب فيها واقعا من الله على قوم فرعون: "فأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدُوه دمًا عَبِطًا –طريّا- فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدّم، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماءِ إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل".(٤٠)

وإذا اعتبرنا أنّ كل هذه الآيات التي قد جاء بها موسى –عليه السلام- إنما تغيرت صورتها بمفهوم البرء فعليه لا يكون البرء مقصوراً على بني آدم فقط أو خلق الحيوان فقط كما

الخاتمة:

- اختلف المفسِّرون واللغويون في تحديد معنى اسم الله (البارئ) حيث ذهبوا إلى أنه بمعنى: الخالق، والفاطر، والمخترع، والمبدع، والصانع، والمدقق، والمنشئ، والمميز للأشكال، وقالب الأعيان، وفاصل الصور ومفرقها، والموجد من العدم، ومهيئ الأشكال ومكونها...إلخ.

-اسم البارئ ليس مرادفاً بالكلية لاسمي الخالق والمصوّر.

- الخلق أو الإيجاد من العدم لا يتعلق باسم البارئ كما ذهب بعض علمائنا رحمهم الله، وإنما يتعلق باسم الخالق.

- البرء ليس خاصّاً بالحيوان، وليس مقصوراً على الإنسان كما ذهب إلى ذلك بعض علمائنا، ولكنّ الغالب فيه تعلقه بتسوية النفس البشرية كما وضح القرآن الكريم.

- البرء يعني تسوية الخلق وتكوينه مع تركيبه وتعديله، وقد توصل البحث إلى ذلك بالمقارنة بين المواضع التي جمعت مشتقات هذه الأسماء الحسنى الثلاثة في القرآن الكريم.

- الحكمة في وقوع اسم (البارئ) بين اسمي (الخالق) و(المصوِّر) تتلخص في أنّ الخلق أعم من البرء لتعلقه بإيجاد المادة التي يتم تسويتها وتعديلها لذلك تقدم عليه، والتصوير يتعلق بالبرء ويختلف باختلاف تركيب مادته لذا تأخر عنه.

-الحكمة من تذكير موسى عليه السلام لعصاة بني إسرائيل مرغباً ومرهباً لهم باسم البارئ في الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة؛ هي أنّه كان يدرك أنّ البرء هو تمام القدرة على تركيب الخلق مع تسويته وتعديله ومن ثمّ إخراجه في أي صورة شاء، وكأنّه كان يريد أن يحذر قومه من عقوبة المَسخ الذي هو تغيير الصورة إلى صورة أقبح منها، وقد حدث ذلك بالفعل لأصحاب السبت منهم وقد أخبرت الآية الخامسة والستون وما يليها عن ذلك المسخ، وكما وضح أنه لا يقدر على تغيير هذه الصورة سوى بارئها.

- ذكّر موسى عليه السلام قومه باسم البارئ لما فيه من دلالة لغوية على تنزيه الله عن النقائص وعلى رأسها الشرك، وهذا يتناسب مع حالهم من اتخاذهم العجل إلها.

- الحكمة من تكرار موسى عليه السلام لاسم البارئ في الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة هي كأنّه عليه السلام كان يريد أن يقول لهم العقوبة ليست مقصورة على الدنيا بتغيير خلقكم قردة ممسوخة، وإنما البارئ يكون كذلك قادراً على إعادة تركيبكم وتسويتكم ثمّ محاسبتكم يوم القيامة.

- من اللطائف أنّ جلّ الآيات التي جاء بها موسى -عليه السلام- يتجلى فيها معنى البرء عن طريق إعادة التسوية ومن ثم التغيير من صورة إلى أخرى، كما هي الحال في آية العصا وتحولها إلى ثعبان ثم عودتها، وكذلك آية اليد والدم وانفلاق البحر وتفجر الحجر.

مصادر البحث ومراجعه:-

* القرآن الكريم.
*البخاري (محمد بن إسماعيل):
- الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: دكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.
*البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر):
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسوّر، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
*البيهقي (أحمد بن الحسين أبو بكر):
- الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، الطبعة الأولى، جدة، بدون تاريخ.
*تمّام حسّان: (دكتور):
- اللغة العربية معناها ومبناها، دار الكتب العلمية، ط/٥، ٢٠٠٦مـ.
*ابن جرير الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير):
- جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
*ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي:
- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٤ه.
*الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري):
- تاج اللغة وصِحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط/٤، ١٩٨٧مـ.
*ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد):
- الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل، مكتبة الخانجي، د/ط، د/ت.
*أبو حيّان (محمد بن يوسف الأندلسي):
- البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
*الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي):
- لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩ م.
*الخليل بن أحمد (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفرهودي):
- العين، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار الهلال.
*الرازي (فخر الدين محمد ابن عمر الخطيب):
- مفاتيح الغيب، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٥م.
*الزّجّاج (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد):
- تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤م.
*الزمخشري (جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي):

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شرحه وضبطه: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
*السمين الحلبي (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف):
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، د/ط، د/ت.
*ابن سِيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل):
- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ٢٠٠٠مـ.ويُنظر: المخصص: ٢٢٦/٥، تحقيق: خليل إبراهيم، دار إحياء التراث، بيروت، ط/١، ١٩٩٦مـ.
*السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر):
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٥١٣/٣، دار الفكر، د/ط، د/ت.
*ابن عاشور (محمد الطاهر بن عاشور):
- التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
*عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: (دكتور):
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الكتب، د/ط، ١٩٩١مـ.
*الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي):
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي، الطبعة الأولى، قبرص، ١٩٨٧م.
*ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا):
- مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩مـ.
*ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي):
- تفسير القرآن العظيم، دار التقوى للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.
*محمد فؤاد عبد الباقي:
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
*مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري):
- الجامع الصحيح، دار الجيل بيروت، بدون تاريخ.
*ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري):
- لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠م.
*هارون يحيى:
- خديعة التطور: (الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديلوجية، ترجمة: سليمان بايبارا، مراجعة: أحمد ممتاز سلطان، د – ط، د – ت.

تمّ بحمد الله.

(١) يُنظر، عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: ٤٥-٧٤، دار الكتب، القاهرة، د/ط، ١٩٩١م.
(٢) تمّام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٣٧، عالم الكتب، ط/٥، ٢٠٠٦مـ.
(٣) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى: ص ٣٧، دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤م.
(٤) البيهقي، الأسماء والصفات: ٧١/١، دار السوادي، الطبعة الأولى، جدة.
(٥) الغزاليّ، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: ص٦٥، الجفان والجابي، الطبعة الأولى، قبرص، ١٩٨٧م.
(٦) المقصد الأسنى: ص: ٦٦.
(٧) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣٧٤/٤، مكتبة مصر، القاهرة.
(٨) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٢٢٨/٨، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٤ه.
(٩) الرازيّ، مفاتيح الغيب: ٥١٥/٢٩، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٠م.
(١٠) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: ٢٤٩/٨، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١م.
(١١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: ٧٣/٧، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.
(١٢) المرجع السابق: ٧٣/٧.
(١٣) البقاعيّ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّوَر: ٥٤٣/٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
(١٤) المرجع السابق: ٥٤٤/٧.
(١٥) يُنظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير:١٢٣/٢٨-١٢٥.
(١٦) يُنظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير:١٢٣/٢٨-١٢٥.
(١٧) الجوهري، الصحاح: ٣٦/١، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط/ ٤، ١٩٨٧مـ.
(١٨) ابن فارس، مقاييس اللغة: ٢٣٦/١، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩مـ.
(١٩) ابن سِيده: المحكم والمحيط الأعظم: ٢٨٦/١٠، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ٢٠٠٠مـ.ويُنظر: المخصص: ٢٢٦/٥، تحقيق: خليل إبراهيم، دار إحياء التراث، بيروت، ط/١، ١٩٩٦مـ.
(٢٠) ابن منظور، لسان العرب: مادة (بَرَءَ)، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠م.
(٢١) المرجع السابق: مادة (بَرَءَ) أيضاً.
(٢٢) يُنظر، الجوهري، الصحاح، مادة سَوَى: ، ومادة عَدَل: ، ويُنظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة عَدَل: ، ومادة سَوَى: .
(٢٣) ابن حزم الأندلسي، الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل: ٤٢/٥، مكتبة الخانجي، د/ط، د/ت.
(٢٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٦/٨، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر، ط/٢، ١٩٩٩مـ.
(٢٥) تلك المواضع هي: (السجدة: ٩، الكهف: ٣٧، ص:٧٢، الحجر: ٢٩، القيامة: ٤، ٣٨، الانفطار: ٧، الأعلى: ٢، الشمس: ٧.)، يُنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة سوي.
(٢٦) ابن منظور، لسان العرب: مادة (مَسَخَ).
(٢٧) تفسير ابن كثير: ٦١٧/٣.
(٢٨) يُنظر: المرجع السابق: ١١٧/١، ١١٨.
(٢٩) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٠٣/١٣، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
(٣٠) المرجع السابق: ٤٣٨/١٠.
(٣١) مسلم، الجامع الصحيح: جزء من حديث ذكر برقم: ٣٦٦٣، دار الجيل، بيروت، د/ت.
(٣٢) يُنظر: هارون يحيى، خديعة التطور: (الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديلوجية، ترجمة: سليمان بايبارا، مراجعة: أحمد ممتاز سلطان، د – ط، د – ت.
(٣٣) تفسير ابن كثير:١١٨/١.
(٣٤) المرجع السابق: ٤٨٤/٤.
(٣٥) المرجع السابق: ٤٨٤/٤.
(٣٦) تفسير الطبري: ١٧/١٣.
(٣٧) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٥١٣/٣، دار الفكر، د/ط، د/ت.
(٣٨)المرجع السابق: ٥٨٦/٣.
(٣٩) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: ٥٢٧/٨، تحقيق: أحمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، د/ط، د/ت.
(٤٠) تفسير الطبري: ٥٨/١٣.